# الفصل الثالث

# مع قادة الفتح

- مع أبي عبيدة.
- مع خالد بن الوليد.
- مع عكرمة.
- مع أبي محجن الثقفي.
- مع سعد بن أبي وقاص.

## (1)

## بين أبي عبيدة وأهالي حمص

إن المعاملة الكريمة التي عامل بها أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه أهالي حمص، عندما غادر المسلمون المدينة، تلقي أضواءً على مفهوم العدالة والصدق اللذين يتحلى بهما هذا القائد الشجاع والنبيل.

فأثناء فتح حمص، جمع المسلمون الجزية من السكان المحليين. وهذه الضريبة، كانت تؤخذ من غير المسلمين مقابل إعفائهم من الخدمة العسكرية وحمايتهم من الأعداء. ولكن بما أن المسلمين الآن سيغادرون المدينة، والموقف لا يسمح لهم بحماية سكانها، فقد جمع أبو عبيدة السكان وأعاد إليهم الأموال التي أخذها منهم. وقال لهم: نحن لسنا بقادرين على مساعدتكم والدفاع عنكم، وأنتم الآن أحرار بأنفسكم.

فأجاب أهل حمص: إن حكمك لنا وعدالتك أعزّ لدينا من الظلم والقسوة التي كنا نعيشها من قبل. إضافة إلى ذلك، فقد كتب أبو عبيدة إلى أمراء الألوية

الأخرى في سورية لكي يعيدوا إلى الناس الجزية التي جمعوها منهم، وقد تم تنفيذ ذلك من قبل كل أمير قبل تحركه للانضمام إلى أبي عبيدة في الجابية. إن هذا الإجراء الذي قام به المسلمون بإعادة الجزية إلى أصحابها لم يحدث مثله قط من قبل، ولن يحدث مرة أخرى[1].

**لمثل هذه الأخلاق العالية.. والمعاملة الكريمة لسكان البلاد التي فتحها المسلمون.. أقبل الناس على الإسلام ودخلوا في دين الله أفواجاً..**

**بمثل هذه الأخلاق.. وبمثل هذه المعاملة.. وبمثل هؤلاء الأمراء العظماء يكون الاقتداء.**

## (2)

## أبو عبيدة أمين هذه الأمة

◄ **هو القوي الأمين**.. الذي قال عنه الخليفة العظيم عمر بن الخطاب ﷺ وهو يجود بأنفاسه: لو كان أبو عبيدة بن الجراح حياً لاستخلفته، فإن سألني ربي عنه، قلت: استخلفت أمين الله، وأمين رسوله.

◄ **وهو الأمين**.. الذي وصفه عبد الله بن عمر ﷺ فقال: ثلاثة من قريش أصبح الناس وجوهاً، وأحسنها أخلاقاً، وأثبتها حياء، إن حدّثوك لم يكذبوك، وإن حدّثتهم لم يكذّبوك: أبو بكر الصديق، وعثمان بن عفان، وأبو عبيدة بن الجراح.

◄ **وهو قائد** جيوش المسلمين في الشام.. قادهم من نصر إلى نصر حتى فتح الله على يديه الديار الشامية كلها.. فبلغ الفرات شرقاً وآسيا الصغرى شمالاً.. وكان القائد والشاهد على العهد العمري الذي تسلم المسلمون بموجبه أمانة بيت المقدس الذي بارك الله فيه وفيما حوله.

---

(1) خالد بن الوليد، أ. أكرم، ص: 155.

**نحن معه اليوم على موعد في مشهد مؤثر، وحوار كريم بين الخليفة عمر وقائده في الشام أبي عبيدة.**

فلما دهم بلاد الشام طاعون ما عرف الناس مثله قط، فجعل يحصد الناس حصداً.. عندها وجه الخليفة على وجه السرعة رسولاً إلى أبي عبيدة ومعه رسالة يقول فيها:

(إني بدت لي إليك حاجة لا غنى لي عنك فيها، فإن أتاك كتابي ليلاً فإني أعزم عليك ألا تصبح حتى تركب إليّ، وإن أتاك نهاراً فإني أعزم عليك ألا تمسي حتى تركب إليّ).

لماذا يفعل عمر القائد العظيم ذلك؟

إنه لأول مرة تغلبه عاطفته.. ويدفعه حبه الكبير لرفيق دربه أبي عبيدة..

يريد أن يبعده عن الوباء.. وعن الموت القريب منه..

ولكن هل يفعلها عمر بن الخطاب.. لو كان مكان أبي عبيدة؟

هل تسمح له مسؤولياته تجاه المسلمين بذلك؟

هل يترك جيشه.. الذي يحصده الطاعون ويتساقط منه المئات كل يوم..

هل يترك الجيش لقدره.. وينجو هو بنفسه.. هل هذه هي أخلاقيات عمر؟

أليس عمر هو القائل: «كيف يعنيني شأن الناس، إذا لم يصبني ما يصيبهم».

وعندما جاع المسلمون.. وضع يده على بطنه وقال: لتمرننّ أيها البطن على الزيت، ما دام السمن يباع بالأواقي.

لقد كان أول من يجوع إذا جاع الناس، وآخر من يشبع إذا شبعوا.

ولو استجاب أبو عبيدة.. لأوامر الخليفة.. بأن ينجو بنفسه ويترك جيشه يحصده الوباء.. فماذا سيقول عنه جنود هذا الجيش الذي نظروا دائماً إلى قائدهم باعتباره القدوة المثلى لهم: قوة وعظمة وأمانة.

ماذا سيقول الناس.. وماذا سيسجل التاريخ المنشغل في تلكم الأيام بتسجيل الصفحات البيضاء المجيدة في تاريخ المسلمين؟

وقبل أن ننتهي من هذا المشهد.. لنسمع جواب أبي عبيدة للفاروق: «يا أمير المؤمنين، إني قد عرفت حاجتك إليّ، وإني في جند من المسلمين ولا أجد بنفسي رغبة عن الذي يصيبهم.. ولا أريد فراقهم حتى يقضي الله فيّ وفيهم أمره.. فإذا أتاك كتابي هذا فحللني من عزمك، وائذن لي بالبقاء».

وقبل أن يلفظ أبو عبيدة أنفاسه الأخيرة أوصى جنده فقال: أقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وصوموا رمضان، وتصدقوا، وحجّوا، واعتمروا، وتواصوا، وانصحوا لأمرائكم ولا تغشوهم..

### التربية بالقدوة

هذا هو المشهد المؤثر.. والحوار الكريم.. بين الرجال القدوة.. الذين ربّاهم النبي ﷺ.. فكانوا أعلام هداية.. وساسة الدنيا.. وقادة الفتح المبين.

حوار بين عاطفة الحب في الله الذي ربط بين قلوبهم.. ونداء الواجب والشعور بالمسؤولية الذي استقر في قلبي الرجلين العظيمين..

وكذلك على أبناء الدعوة والدعاة، أن يفهموا جيداً معنى الحب في الله.. واستشعار المسؤولية.. والنصح لخلق الله، وأن يقتدوا.. فبمثل هؤلاء تكون القدوة.

## (3)

## بين خالد وجرجة!

اصطفت ألوية المسلمين لصلاة الفجر، وكان يؤم الصلاة أمراء الألوية والكتائب. وحالما انتهت الصلاة، أسرع كل رجل إلى مكانه المعين له. وبطلوع الشمس كان الجيشان يقابلان بعضهما بترتيب المعركة، في وسط سهل اليرموك ويبعدان عن بعضهما أقل من ميل.

وانتظر الجنود بدء المعركة التي كما يقول المؤرخون (تبدأ بشرارة نار وتنتهي بأجج مدمرة تكون أشد ضراوة يوماً بعد يوم)[1].

ثم ظهر جنرال روماني اسمه جورج (جرجة) من قلب جيش الروم وتقدم على فرسه باتجاه المسلمين، وعندما اقترب من قلب جيش المسلمين، رفع صوته وطلب خالداً. ومن جانب المسلمين، خرج خالد راكباً على فرسه وهو سعيد بفكرة أن المعركة ستبدأ به شخصياً بالمبارزة، وعليه أن يبدأ الخطوة الأولى للمعركة.

وعندما اقترب خالد، لم يتحرك الروماني لسحب سيفه، ولكنه استمر ينظر إلى خالد بإمعان. وتقدم خالد حتى تلاصقت رقاب الخيل، وحتى ذلك الوقت لم يسحب الروماني سيفه، عندئذ تكلم الروماني بالعربية: يا خالد أصدقني القول، ولا تكذبني فإن الحر لا يكذب، ولا تخادعني فإن الكريم لا يخادع، بالله هل أنزل الله على نبيكم سيفاً من السماء فأعطاكه فلا تسلّه على قوم إلا هزمتهم؟

فأجاب خالد: لا.

فقال جرجة: ففيم سمِّيت سيف الله؟

فقال خالد: إن الله ﷻ بعث فينا نبيه ﷺ، فدعانا فنفرنا عنه ونأينا عنه جميعاً، ثم إن بعضنا باعده وكذبه، فكنت فيمن كذبه وباعده وقاتله، ثم إن الله أخذ بقلوبنا ونواصينا فهدانا به فتابعناه، فقال: أنت سيف من سيوف الله، سله الله على المشركين، ودعا لي بالنصر فسميت سيف الله وأنا من أشد المسلمين على المشركين.

فقال جرجة: يا خالد أخبرني إلامَ تدعوني؟

فقال خالد: إلى شهادة أن لا إلٰه إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، والإقرار بما جاء به من عند الله.

فقال جرجة: ومن لم يجبكم؟

فقال خالد: فالجزية ونمنعهم.

---

(1) الواقدي، ص: 133.

فقال جرجة: فإن لم يعطها؟

فقال خالد: نؤذنه بحرب ثم نقاتله.

فقال جرجة: فما منزلة الذي يدخل فيكم ويجيبكم إلى هذا الأمر اليوم؟

فقال خالد: منزلتنا واحدة فيما افترض الله علينا شريفنا ووضيعنا وأولنا وآخرنا.

فقال جرجة: هل لمن دخل فيكم اليوم يا خالد مثل ما لكم من الأجر والذخر[1]؟

فقال خالد: نعم وأفضل.

ولدهشة الجيشين، اللذين لم يعرفا ما دار بين القائدين، عطف خالد جواده، وسار مع الروماني ببطء. واتجها إلى الجيش الإسلامي. وبمجرد وصول جورج إلى الجيش الإسلامي كرر بعد خالد كلمات: لا إله إلا الله محمد رسول الله. وبعد مضي بضع ساعات قاتل جورج الذي اعتنق دينه الجديد بشجاعة واستشهد في المعركة، وبهذا الاعتناق السعيد، ابتدأت معركة اليرموك.

**بمثل هذا المنطق المبين تكون الدعوة في السلم وفي الحرب..**

وعلى الذين يريدون الاقتداء فبسيف الله فليقتدوا..

## (4)

## فارس اليرموك الملثّم!

عندما اقترب خالد بن الوليد من ميدان المعركة، رأى فجأة أحد الخيالة المسلمين يمرّ من خلفه ويتجه نحو الروم بسرعة. وقبل أن يتمكن خالد من إيقافه، استطاع هذا الخيال من الوصول إلى صفوف الروم. كان هذا الخيال نحيلاً،

(1) الطبري (2/ 595).

ويرتدي زياً أسود، ويغطي صدره بدرع، وكان يضع على رأسه عمامة خضراء، ويلف وجهه بقناع بحيث لا يرى منه سوى العينين. لقد وصل خالد إلى ميدان المعركة في الوقت الملائم ليرى هذا الخيال وهو يقذف بنفسه نحو الروم باندفاع يثير الدهشة ويجعل كل من شاهده يظن أن به مساً من الجنون هو وحصانه. ورأى رافع هذا الخيال قبل رؤيته لخالد وعلّق على ذلك قائلاً: إنه يهجم مثل خالد، لكنه ليس خالداً[1].

استغرق خالد بعض الوقت في تنظيم قواته، وفي فتحها للمعركة كقوة مشتركة. وفي أثناء ذلك قام الخيال المقنّع بعرض يهز المشاعر أمام المسلمين، إذ كان يهجم على صفوف الروم فيقتل أحدَهم، ثم يعدو على حصانه إلى جزء آخر من جبهة الروم فيضرب شخصاً آخر. وتقدم عدد قليل من الروم للانقضاض عليه لكنهم سقطوا جميعاً بواسطة رمحه المخيف. وقد أعجب المسلمون بهذا الخيال لكنهم لم يستطيعوا أن يروا منه أكثر من ملامحه الشابة وعينيه اللتين تشعان تحت القناع. وكان هذا الخيال يبدو وكأنه يبحث عن الشهادة، فثيابه ورمحه كانت تقطر دماً، وهو يضرب المرة تلو الأخرى في صفوف الروم.

لقد أثار عمل هذا الخيال حماسة وشجاعة المقاتلين، الذين نسوا تعبهم وعادوا إلى القتال بروح معنوية عالية عندما أصدر خالد أوامره للهجوم.

تابع الخيّال المقنع - وقد انضم إليه العديد من المسلمين - حربه ضد الروم، بينما قامت جميع قوات المسلمين بالهجوم. وبعد أن بدأ الهجوم العام، اقترب خالد من الخيّال المقنع وقال له: أيها الفارس، أرنا وجهك. فنظر الفارس بعينيه السوداوين إلى خالد ثم انطلق بسرعة نحو صفوف الروم لمتابعة القتال. بعدئذ استطاع نفر قليل من رجال خالد أن يوقفوا الخيّال، وقالوا له: أيها المقاتل الكريم، قائدك يناديك وأنت تهرب منه، أرنا وجهك، وأخبرنا عن اسمك كي يكرمك القائد. ومرة أخرى تملّص الخيّال وكأنما يحاول إخفاء هويته عمداً.

(1) الواقدي، ص: 28.

وبعد أن عاد الفارس المقنع من هجومه، مرّ بالقرب من خالد الذي طلب منه التوقف. فتوقف الفارس، فقال خالد: لقد فعلت ما فيه الكفاية لتملأ نفوسنا بالإعجاب. فمن أنت؟

وعندما سمع خالد الإجابة أوشك أن يسقط عن فرسه، لأن الصوت كان لفتاة: أيها القائد، لقد ابتعدت عنك بسبب التواضع فقط، فأنت القائد العظيم، وأنا واحدة من أولئك الذين يبقون خلف الحجاب. لقد قاتلت كما رأيت لأن قلبي يشتعل ناراً. فقال خالد: من أنت؟ فقالت الفتاة: أنا خولة، أخت ضرار. لقد أسر أخي، ويجب عليّ أن أقاتل لإطلاق سراحه.

لقد أعجب خالد بالرجل العجوز، الأزور، والد هذين المقاتلين الجريئين، الشاب والفتاة. ثم قال لها خالد: إذن تعالي وهاجمي معنا.

استمر قتال المسلمين بقوة، وحوالي منتصف النهار بدأ الروم بالانسحاب من أرض المعركة. ولحق بهم المسلمون، وشددوا الضغط عليهم، ولكن لم يجدوا أي أثر لضرار حياً أو ميتاً. ثم جاء بعض العرب المحليين وأخبروا المسلمين بأنهم رأوا حوالي مائة من الروم وهم يتجهون نحو حمص ومعهم رجل عاري الصدر مربوط إلى فرسه. فأدرك خالد على الفور أن ضرار قد أرسل بعيداً عن ميدان المعركة، فأمر رافعاً أن يأخذ معه مائة من خيرة الفرسان، وأن يتحرك حول مجنبة الروم للوصول إلى طريق حمص واعتراض قوة الحراسة المكلفة بمرافقة ضرار إلى حمص. وعلى الفور اختار رافع مائة من الصناديد وانطلق ومعه طبعاً خولة بنت الأزور.

وصل رافع إلى طريق حمص وانتظر في نقطة لم تصل إليها قوة الحراسة بعد ونصب فيها كميناً. وعندما وصل المائة رومي إلى هذه النقطة، انقضّ رافع ورجاله عليهم، وقتلوا معظمهم، وأطلقوا سراح ضرار. واجتمع البطل عاري الصدر مع أخته الشجاعة[1].

(1) سيف الله خالد بن الوليد، أ. أكرم، ص: 400.

**هكذا إذاً، للرجال دور في الدفاع عن أرض الإسلام.. وللفتاة دور مماثل.. فهل يدرك شبابنا وشاباتنا ذلك ويقتدوا بالأبطال.. ضرار وخولة؟!**

## (5)

## عكرمة يقود كتيبة الموت!

في معركة اليرموك، ونتيجة لهجوم الروم القوي تقهقر المسلمون إلى مواقعهم الأصلية. وكان الروم يعلمون أن هذا اليوم هو اليوم الفاصل للمعركة، لذلك هاجموا بعنف وضراوة. وقد تم دحر لوائيْ أبي عبيدة ويزيد بن أبي سفيان لمسافة قصيرة، باستثناء كتيبة عكرمة التي كانت تقف عند الطرف اليساري لقطاع أبي عبيدة.

لقد رفض عكرمة المقدام التراجع، وطلب من رجاله أن يقسموا على القتال حتى الموت، وعدم تسليم موقعهم. وعلى الفور أقسم أربعمائة من رجاله على ذلك، وانقضوا على الروم كالذئاب الجائعة. ولم يقتصر هجوم عكرمة على الروم المواجهين له، بل انقض أيضاً على كتائب الروم التي كانت تمر على مجنبته. ولم يسقط هذا الموقع من يد المسلمين أبداً. إن رجال عكرمة الأربعمائة الأبطال الذين أقسموا على القتال حتى الموت قد أصيبوا جميعهم إما بإصابات مميتة أو بجروح خطيرة، لكنهم قتلوا من الروم أعداداً تفوقهم بعدة مرات. وقد أصيب عكرمة وابنه عمر بإصابات مميتة.

لم يذهب لواء أبي عبيدة ويزيد هذه المرة إلى المعسكر.

إنهما لم يجرؤا على ذلك، لأن النساء كنّ يحملن السيوف وقد اندفعن إلى الأمام وانضممن إلى رجالهن.

جاءت النساء وهن يحملن السيوف وأعمدة الخيام لضرب الروم، وجلبن الماء للجرحى والعطشى من المسلمين. وكانت بينهن خولة، وزوجة الزبير، وأم حكيم زوجة عكرمة، التي صرخت في النساء قائلة: اضربن الروم على

أذرعهم[1]. واندفعت النساء بين ألوية المسلمين حتى وصلن إلى الصف الأمامي، وصممن على القتال أمام رجالهن هذه المرة، وكان عملهن نقطة تحول في هذا القطاع.

كان منظر النساء وهن يقاتلن مع الرجال، مثيراً لحماس المسلمين، فهجموا على الروم بشجاعة نادرة. واستخدموا في هجومهم السيوف والحراب، واستطاع صناديد أبي عبيدة ويزيد دحر الروم عن مواقعهم، وتراجع الروم أمامهم بسرعة تحت تأثير ضرباتهم الشديدة.

بلغت المعركة في هذا اليوم ذروتها على طول المواجهة في ساعات بعد الظهر. وفي هذا الوقت كان جميع القادة مشتبكين في القتال مثل رجالهم، وأثبت كل قائد لواء أنه قائد كفء لرجاله الشجعان. ووقع العديد من الروم على الأرض تحت عنف ضربات النساء المسلمات. واندفعت خولة نحو أحد الروم، لكن خصمها كان أمهر منها باستخدام السيف، فضربها على رأسها بسيفه، فخرت على الأرض وقد اصطبغ شعرها بالدم. وعندما دحر الروم للخلف، ورأت النساء جسد خولة بدون حراك بدأن بالبكاء والنحيب وأخذن يبحثن عن ضرار ليبلغنه بموت شقيقته الغالية. لكنهن لم يجدن ضراراً حتى المساء. وعندما وصل إلى المكان الذي ترقد فيه خولة وجدها بخير إذ نهضت وهي تبتسم.

لقد هبط الظلام عندما كان خالد جالساً على الأرض المضرجة بالدماء عند الطرف الأيسر من قطاع أبي عبيدة. وكان رأس عكرمة يستند على إحدى ركبتيه، **وعلى الركبة الثانية كان يستند رأس عمر بن عكرمة. لقد كان الأب والابن يحتضران. وكان خالد يمسح عن وجهيهما ويقطر في حلوقهما الماء وهو يقول: «زعم ابن الحنتمة أنا لا نستشهد»**[2].

وهكذا مات عكرمة وابنه بين ذراعي خالد.

---

(1) الواقدي، ص: 149. أما البلاذري فيذكر أن هذه الكلمات قالتها هند، ص: 141.
(2) الطبري (2/ 597).

**إن المجد العظيم الذي أحرزه المسلمون في يوم اليرموك.. وهو يوم لم ير المسلمون مثله قط في بلاد الشام، يعود الفضل فيه إلى القائد خالد بن الوليد والأبطال من حوله من أمثال عكرمة ابن أبي جهل وإخوانه المجاهدين.**

**وبمثل هذه البطولات.. تكون القدوة!.**

## (6)

## في ظلال اليرموك!!

من المواقف الرائعة التي حدثت في هذه المعركة أن ثلاثة من أبطال المسلمين أصيبوا، وهم: الحارث بن هشام، وعكرمة بن أبي جهل، وعياش بن أبي ربيعة ﷺ.. أجمعين.

وبينما هم بين الحياة والموت عطشوا عطشاً شديداً فطلب الحارث ماءً، ولما جاءه رأى أن عكرمة يتطلع إليه ويريده، فقال للساقي:

◄ اذهب بالماء إلى عكرمة!

فلما ذهب بالماء إلى عكرمة، رأى عكرمة عياشاً يتطلع إليه ويريده، فقال للساقي:

◄ اذهب بالماء إلى عياش!

فلما وصل الساقي بالماء إلى عياش وجده قد أسلم الروح، فعاد بالماء إلى عكرمة فوجده قد مات، فعاد إلى الحارث فوجده قد مات[1]!

**﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾..**

**هذا شعار الرواد الذين لا يكذبون أمتهم..**

**فهل يقتدي الخلف.. بهذا السلف العظيم؟.**

---

(1) سيف الله خالد بن الوليد، أحمد الشرباصي، ص: 60.

## (7)

## أبو محجن الثقفي من أبطال القادسية

وكان من أبطال المسلمين أبو محجن بن حبيب الثقفي، وكان ممن أثار شَغَباً على سعد لما عيّن خالد بن عُرفطة نائباً له في معركة القادسية، وقد حبس سعد أولئك المشاغبين في حصن قُديس منعاً للفتنة وتوحيداً للكلمة، وكان أبو محجن من المحبوسين.

شاهد أبو محجن المعركة من السجن، في يومها الأول وفي يومها الثاني، وفي ليلة السواد ازدادت المعركة عنفاً وشدة، وأبو محجن فارس بطل، ومجاهد شجاع، وقد آلمه عجزُه عن الاشتراك في القتال لأنه يرسف في قيوده.

توجه نحو سلمى امرأة سعد فقال لها: هل لك إلى خير؟

قالت: وما ذاك؟

قال: تُخلّين عني، وتعيريني البلقاء - فرس سعد المشهورة - لأقاتل الفرس، ولله عليّ أن سلّمني الله أن أرجع إليكِ، حتى أضع القيد في رجلي!!

خافت سلمى من سعد وغضبه، فقال له: وما أنا وذاك؟.

فرجع أبو محجن حزيناً إلى مكانه يرسف في قيوده، وأنشد متألماً:

كفى حزناً أن ترتدي الخيلُ بالقنا ... وأُترَك مشدوداً عليّ وثاقيا
إذا قمتُ عنّاني الحديدُ وغُلّقت ... مصارع دوني قد تصم المناديا
وقد كنتُ ذا مال كثير وإخوة ... فقد تركوني واحداً لا أخا ليا
وقد شفّ جسمي أنني كلُ شارق ... أعالج كبلاً مُصْمتاً قد برانيا
فللّه درّي يوم أُترك موثقاً ... ويذهل عني أثرتي ورجاليا
حُبسنا عن الحرب العوان وقد بدت ... وأعمال غيري يوم ذاك العواليا
فللّه عهدٌ لا أُخِيسُ بعهده ... لئن خرجتُ أن لا أزور الحوانيا

ولما سمعت امرأة سعد كلام أبي محجن رقّتْ له ووافقت على عرضه، أن تفك قيوده، ويخرج للجهاد، فإن سلّمه الله عاد إليها، وأعاد القيود إلى رجليه!

## أبو محجن يعود للقيود

ولما فكّت قيوده، ركب فرس سعد البلقاء وانطلق إلى الميدان! وصال وجال، وهو الفارس المغوار، وكبّر وحمل على ميسرة الفرس، ثم رجع من خلف المسلمين، وحمل على ميمنة الفرس، ثم رجع من خلف المسلمين، وحمل على قلب الفرس، وهو يقتل كل من لقيه.

نظر المسلمون إلى هذا الفارس الشجاع المقاتل في الليل، وهم لا يعرفونه، وأعجبوا به لجهاده ومهارته، لكنهم لا يعرفون من هو، فقد يكون ملكاً من الملائكة! وقد يكون هاشم بن عتبة قائد جيش النجدة القادم من الشام! ولم يخطر في بال أحدهم أن يكون هذا الفارس أبا محجن، لأنهم يعلمون أنه مسجون!

ونظر سعدٌ إلى هذا الفارس الغريب، وهو على ظهر الحصن، وكان سعد من أحدّ الناس بصراً فلم يعرفه! الفرس تشبه فرسه البلقاء، وضبرها ووثبها يشبه ضبرَ وعدوَ فرسه البلقاء، والفارس في ضربه يشبه أبا محجن في ضربه!

قال سعدٌ متحيّراً متعجباً: من ذلك الفارس؟ الضَّبْرُ ضبر البلقاء، والطعن طعن أبي محجن! وأبو محجن في القيد.. والله لولا محبس أبي محجن لقلت: هذا أبو محجن وهذه البلقاء.

ولما توقف القتال في منتصف ليلة السواد، عاد أبو محجن الثقفي إلى الحصن، وأعاد فرس سعد البلقاء إلى مكانها، ووفّى بعهده مع سلمى زوجة سعد، ووضع بنفسه القيود في رجليه!.

أُعجبت زوجة سعد ببطولة أبي محجن وقتاله في الليل، كما أعجبت بوفائه بوعده، حيث عاد إلى السجن مختاراً، وفي الصباح أخبرت سعداً بالأمر، وعرف سعد أن الفارس في الليل هو أبو محجن، وأن الفرس هي البلقاء! فاستدعى أبا محجن وفكّ قيوده، وأعاده إلى الميدان، فجاهد في اليوم التالي جهاد الأبطال!

لقد كفّر أبو محجن عن مشاغبته بجهاده..

وبمثل بطولة هؤلاء ووفائهم يقتدي المجاهدون.

## (8)

## الله أكبر.. هذا أبيض كسرى

المدائن عاصمة الفرس مكونة من مجموعة من المدن، بعضها يقع على الشاطىء الغربي لنهر دجلة، وبعضها الآخر يقع على الشاطىء الشرقي للنهر.

وتتكون المدائن من سبع مدن، هي:

1 - **بهرسير**: وتقع على الضفة الغربية لنهر دجلة.

2 - **أردشير**: وتسمّى (سلوقية) أيضاً، وتقع على الضفة الغربية للنهر.

3 - **ماخوزا**: وتقع على ضفة النهر الغربية.

4 - **بلاش آباد**: وتقع على ضفة النهر الغربية.

5 - **درزنبذان**: وتقع على ضفة النهر الغربية.

6 - **طيسفون**: وتقع على الضفة الشرقية للنهر، مواجهة لمدينة أردشير.

7 - **أسبانبر**: وتقع على الضفة الشرقية للنهر، مواجهة لمدينة بهرسير.

وتسمى مدينتا طيسفون وأسبانبر المدائن القصوى، وهما أهم مدن (المدائن). ومقر كسرى في مدينة (أسبانبر)، فيها إيوانُه وقصره، وفيها الحدائق الملكية.

وكانت منطقة المدائن جميلة جذابة على ضفتي نهر دجلة، فيها الغابات والحدائق، والحيوانات المختلفة، والمزارع الخصبة، كما أنها كانت منطقة حصينة، محاطة بالأسوار والتحصينات، ويحرسها مجموعة من الجنود، وكانت في غاية الترف والرفاهية، كيف لا وهي عاصمة الدولة الفارسية، ثاني أقوى دولة - بعد الرومان - في ذلك الزمان.

كان القصر الملكي في أسبانبر وكان كبيراً ضخماً، يسمى (القصر الأبيض) وفيه إيوان كسرى، بقبّته البيضاء الشامخة، وجدرانه البيضاء، وكان مترفعاً يعلو على أشجار الحدائق المحيطة به، ويُرى من بعيد بارتفاعه الشاهق، ويعرف باسم (أبيض كسرى)، أو (القصر الأبيض)، أو (البيت الأبيض)، أو (إيوان كسرى).

وكان معروفاً مشهوراً عند العرب قبل الإسلام، مضرب الأمثال في ضخامته وجماله وتناسقه، يتمنى الرجل أن يراه من بعيد، فإذا دخله وسار في ممراته اعتبر نفسه سعيداً محظوظاً[1].

## في مواجهة القصر الأبيض

دخل المسلمون مدينة (بهرسير) في تلك الليلة المباركة من شهر صفر من السنة السادسة عشرة للهجرة، وهي أولى مدن المدائن السبعة، وأمضوا تلك الليلة في التكبير.

ونظروا إلى الضفة الشرقية من نهر دجلة، حيث مدينة (أسبانبر) فرأوا القصر الأبيض شامخاً وسط أشجار الحدائق والغابات.

كان أول من رآه «ضرار بن الخطاب الفهري» رضي الله عنه، أحد قادة المجاهدين، فكبّر تكبيراً عالياً، وصاح بأعلى صوته: «الله أكبر.. هذا أبيض كسرى.. هذا ما وعد الله ورسوله»!.

وكبّر المسلمون بتكبير ضرار بن الخطاب، وصاروا ينظرون إلى (القصر الأبيض) معجبين مستبشرين، فها هم قريبون منه، لا يفصلهم عنه إلا نهر دجلة وبعض المباني والقصور بينه وبين النهر[2]!!

**تذكّر ضرار بن الخطاب رضي الله عنه في قوله: (هذا ما وعد الله ورسوله) ما قاله رسول الله ﷺ للمسلمين يوم غزوة الأحزاب، قبل حوالي اثنتي عشرة سنة، حيث وعدهم بأبيض كسرى، وها هو الوعد على وشك التحقيق.**

---

(1) وصف المدائن السبعة في (سقوط المدائن)، ص: 31 - 34.

(2) سقوط المدائن، ص: 27 - 28.

## الرسول يبشّر بفتح القصر الأبيض

عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: لما أمرنا رسول الله ﷺ بحفر الخندق عرضت لنا في بعض الخندق صخرة لا تأخذ فيها المعاول! فاشتكينا إلى رسول الله ﷺ.. فجاءنا، فأخذ المعول، فقال: «بسم الله»، فضرب ضربة، فكسر ثلثها، وقال: «**الله أكبر، أُعطيتُ مفاتيح الشام، والله إني لأُبصر قصورها الحمر الساعة**».. ثم ضرب الثانية، فقطع الثلث الآخر، فقال: «**الله أكبر، أُعطيتُ مفاتيح فارس، والله إني لأُبصر قصر المدائن الأبيض**».. ثم ضرب الثالثة، فقطع بقية الحجر، فقال: «**الله أكبر، أُعطيتُ مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذا الساعة...**»[1].

لقد كان الأمل عند رسول الله ﷺ بانتصار الإسلام وانتشاره في الأرض عظيماً كبيراً، وقدّم للمسلمين هذا الأمل في صورة بُشرى يقينية صادقة، في ظرف عصيب خطير كان يمرّ به المسلمون في المدينة! فقد شهد يوم الأحزاب مؤامرة خطيرة ضد المسلمين في المدينة، شارك فيها اليهود والمشركون والمنافقون، وحاصر المدينة عشرة آلاف من المشركين من قريش وغطفان، ونقضَ يهود بني قريظة عهدهم مع رسول الله ﷺ، واستمرّ الحصار شهراً، زُلزل المسلمون فيه زلزالاً شديداً.. وفرّج الله عن المسلمين الكرب، وأزال عنهم الخطر، وردّ الذين كفروا بغيظهم، لم ينالوا خيراً، وكفى الله المؤمنين القتال.

في ذلك الجوّ الصعب، والظرف العصيب، والخطر الكبير، ضرب رسول الله ﷺ الحجر وسط الخندق ثلاث ضربات، وبشّرَ المسلمين بفتح الشام والعراق واليمن.

والشاهد في الحديث قوله ﷺ عند الضربة الثانية: «**الله أكبر، أُعطيتُ مفاتيح فارس، والله إني لأبصر قصرَ المدائن الأبيض**».

ويقصد بذلك القصر الأبيض - أو البيت الأبيض - الذي يقيم فيه كسرى في (أسبانبر) على الضفة الشرقية لنهر دجلة!.

---

(1) رواه النسائي وأحمد وغيرهما.

وبعد اثنتي عشرة سنة من هذا الحديث وهذه الحادثة، يقف سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه بآلاف المجاهدين في مدينة (بهرسير) على بعد مئات الأمتار من القصر البيض، وهم في طريقهم إليه.

ولعل ضرار بن الخطاب رضي الله عنه تذكّر كل هذه المعاني والأحداث وهو يهتف: «الله أكبر، هذا أبيض كسرى، هذا ما وعد الله ورسوله..».

**وكيف لا.. وهو النبي الذي لا ينطق عن الهوى.. إن هو إلا وحي يوحى..**

## (9)

## الأشجّ عامر بن عبد القيس..

قال أبو عبيدة العنبري: لما هبط المسلمون المدائن، وجمعوا الأقباض، أقبل رجل بحُقّ معه (جرة كبيرة مملوءة ذهباً)، فدفعه إلى صاحب الأقباض.

فقال الذين حول صاحب الأقباض: ما رأينا مثل هذا قط، ولا يعدلُه ولا يقاربه شيء مما عندنا!.

ثم داعبوا الرجل الذي جاء به، فقالوا له: هل أخذتَ منه شيئاً؟

فقال: أما والله لولا الله ما أتيتُكم به.

فعرفوا أن له شأناً، فقالوا له: من أنت؟

فقال لهم: لا والله لا أخبركم من أنا لتحمدوني، ولا أخبرُ غيركم ليقرظوني، ولكني أحمد الله وأرضى بثوابه!.

وعاد الرجل إلى قبيلته، وأتبعوه رجلاً ليتعرف عليه فإذا هو الأشجُّ عامر بن عبد القيس رضي الله عنه زعيم قومه، الذي قال له رسول الله ﷺ: «**إن فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله: الحِلْمُ والأناة..**»[1].

(1) تاريخ الطبري 4/ 19.

وكان جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ممن شهدوا فتح المدائن، وشهد للمجاهدين بالأمانة، فقال: والله الذي لا إله إلا هو، ما رأينا أحداً من أهل القادسية أنه يريد الدنيا مع الآخرة!.

ويكفي هؤلاء المجاهدين الأُمناء الزاهدين شهادة قائدهم سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، حيث كاد يقترب بهم من أهل بدر، وذلك في قوله: والله إن الجيش لذو أمانة، ولولا ما سبق لأهل بدر لقلت: وايم الله على فضل أهل بدر! لقد تتبعت من أقوام منهم هنات وهنات فيما أحرزوا، ما أحسبها ولا أسمعها من هؤلاء القوم!.

هكذا كان سلفنا.. يجاهدون في سبيل الله.. لا يطلبون مغنماً ولا جاهاً.. وكما قال القائد سعد: ما رأينا أحداً من أهل القادسية يريد الدنيا مع الآخرة.

**بمثل هؤلاء يكون النصر..**

**وبمثل هؤلاء القادة.. يكون الاقتداء..**

## (10)

## سراقة بن مالك وسواري كسرى

عندما فتح المسلمون المدائن عاصمة فارس.. وغنموا غنائم كثيرة.. وحملت بعضها إلى المدينة عاصمة الإسلام.. وكان منها سواري كسرى.. فلما رآها الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: إن أناساً أدوا هذا لأمناء.. فقال علي رضي الله عنه: رأوك عففت فعفوا.. ولو رأوك رتعت لرتعوا.

وعندما رأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه سواري كسرى وتاجه نادى سراقة بن مالك رضي الله عنه، ليلبسه سواري كسرى.

وإنما دعا سراقة بن مالك بالذات لأن رسول الله ﷺ وعده أن يلبس سواري كسرى، لما لحق به في يوم الهجرة.

وها هو وعد رسول الله ﷺ له قد تحقق بعد سبعة عشر عاماً من الهجرة!

وبعدما لبس سراقة سواري كسرى، قال له عمر: أدبر! فأدبر. ثم قال له: أقبل! فأقبل. ثم قال له: قل: الله أكبر. الحمد لله الذي سلبهما كسرى بن هرمز، وألبسهما سراقة بن مالك، أعرابي من بني مدلج.

ثم قال عمر وحوله الصحابة ﷺ: اللهم إنك منعت هذا نبيك ورسولك، وكان أحب إليك مني، وأكرم عليك مني! ومنعته أبا بكر، وكان أحب إليك مني، وأكرم عليك مني!.. وأعطيتنيه! فأعوذ بك أن تكون أعطيتَنيه لتمكُر بي.

ثم بكى عمر، واشتد بكاؤه، حتى رحمه الصحابة الذين عنده.

ثم طلب من عبد الرحمٰن بن عوف أن يسارع بتقسيم الغنائم على المسلمين.

obeikandl.com